أو حماسيا، ليذهب الأدب إلى الجحيم، جحيمي أو جحيم آخر يختلف. أريد أن أكتب عن رجال ثقال الوزن يجثمون على صدري. خطأ، ليسوا مجرد حفنة من الرجال، الآلة كلها تجثم، بحديدها ونظامها وكلامها وتروسها ونصالها، تستبق القتل بقتل نظيف بلا دم أو أنقاض. أي قتل نظيف؟! بأم عيني رأيت في التليفزيون قبل أيام صور الأطفال في مستشفى البصرة: الشعر المتساقط، البطون المنتفخة، آثار اليورانيوم المُنضَّب في أبدان صغار ولدوا بعد الحرب بسنوات. وبعيني رأيت الحثث المتفحمة والأشلاء في جنين. لا دانتي ولا أبو العلاء ولا بيكاسو يقدرون على تصوير هذا الجحيم. مجزرة بيكاسو مجزرة منمنمة، بحجم القرية الصغيرة التي قصفتها الطائرات، صورها ابن مالقة المارق على لوحة بعرض جدار، أحتاج جدرانا كثيرة، جمهرة من المصورين، هذا جحيم. . .

أغلق دفتره فجأة. عاد إلى القراءة في «عقد الجمان» إلي أن شعر برأسه يميل وجفنيه يثقلان. لا يذكر متى ولا كيف نام. رأى نفسه كأنه في مسرح، يتفرج على مسرحية، لم يكن يجلس في صفوف المشاهدين بل ينتحي جانبا مر الخشبة يراقب المشهد كأنه خارجه رغم أنه فيه. كان ولدا صغيرا لم يتجاوز التاسعة من عمره، يرتدي بنطلونا قصيرا، طفلا في المرحلة الابتدائية.

بدا المشهد إعادة للحكاية القديمة حيث تتنازع المرأتان طفلا ويقرر سليمان الحكيم شق الطفل نصفين، ولكن خلافا للأسطورة القديمة كانت النساء المتنازعات على الصغير كثيرات يحطن به كالطيور الجارحة. يرتدين أثوابا سوداء مزيّنة بحليّ كثيرة وثمينة، يعلو رأس كل منهن غطاء غريب يمزج بين القبعة وتاج الهدهد وعرف الديك، ترتفع أصواتهن، يكاد وقعها يتطابق مع نعيق رف مجتمع من الغربان، كن يحطن بالطفل المتنازع عليه فلا يراه، يحكمن الحلقة حوله، ثم تنفرد امرأة منهن على خلفية الأصوات الناعقة، تخطو إلى مقدمة المسرح وتشرع في إلقاء خطبة تضمّنُها دعواها عن حقوقها في